مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 08/ العـدد: 01/ جوان (2024)، ص.ص.80-90.

# التحولات المنهجية في التّجربة النقدية عند عبد الله الغذامي

# The Methodological Transformations in Critical Experimentation by Abdullah Al-Ghathami

فرلو رابح*
rabah.farlou@univ-tissemsilt.dz
جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي تيسمسيلت
مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة تيسمسيلت (الجزائر)

د. بلخياطي حاج لونيس
lounisbelkhiati@yahoo.fr
جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي تيسمسيلت
مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة تيسمسيلت (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/01/04 تاريخ القبول:2024/05/23 تاريخ النشر: 2024/06/02

**ملخص:**

يتناول هذا المقال التحولات المنهجية لدى أحد أشهر النقاد العرب في العصر الحديث، ونعني به الناقد السعودي عبد الله الغذامي، هذا الناقد الذي أثرى مكتبة النقد العربي بالعديد من الكتب في مجال النقد الأدبي المعاصر، والذي حاول من خلال تلك الجهود النقدية أن يقدم للقارئ العربي رؤية شاملة ومبسطة للنقد الأدبي المعاصر بكل أطيافه، وسنحاول هنا أن نتتبع تلك التحولات التي طبعت نشاطه النقدي انطلاقا من المناهج النسقية (بنيوية/ أسلوبية/ سيميائة)، وكيفية تعامله مع ما جاءت به من آليات إجرائية، ثم تحوله إلى مناهج ما بعد الحداثة خاصة ما تعلق بقضايا مثل التفكيكية والتأويل والأنساق الثقافية والنسوية وأدب الهامش والمسكوت عنه وظاهرة القبحيات في النصوص الأدبية.

**الكلمات المفتاحية:** المناهج النقدية، التّحولات، النسق اللّغوي، النسق الثقافي، التأويل، النسوية.

***Abstract:***

*This article deals with the methodological transformations of one of the most famous Arabic critics in the modern era, by which we mean the Saudi critic Abdullah Al-Ghadhami. This critic who enriched the library of Arab criticism with many books in the field of contemporary literary criticism, and who tried, through those critical efforts, to provide the Arab reader with an *inclusive simplified vision of contemporary literary criticism in all its aspects. Here, we will try to trace those transformations that characterized his critical activity, starting from the *systematic approaches (structural/stylistic/semiotic), and how he dealt with the procedural mechanisms that came *alongside. Then his transformation to post-modernist approaches, especially those related to issues such as*

*المؤلف المرسل

*deconstruction. interpretation, cultural patterns, feminism, marginal and unspoken literature, and the phenomenon of ugliness in literary texts.*
***Keywords**: critical approaches, transformations, linguistic system, cultural system, hermeneutics, feminism.*

## مقدّمة

حاول الخطاب النقدي العربي مجاراة صنوه الغربي؛ فمنذ مطلع القرن الماضي تحوّل الخطاب النقدي الغربي صوب المقاربة النسقية المنغلقة على لغة النّص متبنّيا المناهج النّصانية ابتداءً من البنيوية مروراً بالأسلوبية فالسيميائية وصولاً إلى التفكيك ومطلع سبعينيات القرن الماضي انتبه النّقاد العرب إلى هذه الظاهرة النقدية، فحاولوا جاهدين جلب هذه المعرفة النقدية إلى ساحتنا النقدية، وقد نجحوا إلى حدّ بعيد؛ فتحوّل الخطاب النقدي العربي من السياق إلى النسق، وفي ظلّ هذا الزّخم النسقي انتقل الغرب إلى مناهج ما بعد الحداثة فما كان على الخطاب النقدي العربي إلا التحول واقتحام هذا المعترك.

لقد عاد النقد الغربي في النقد ما بعد الحداثي إلى ظاهرة السّياق التي أهملها النسقيون من خلال عدد من المناهج لعل أهمها وأكثرها استعمالاً المنهج التأويلي هذا المنهج الذي تملص تملصاً لزجاً إلى خطابات أخرى ويأخذ مسارب ملفقة، هذا المنهج الذي يضرب بجذوره في تاريخ النّقد الأدبي والدراسات اللغوية، فقد وجد فيه هذا النقد آلية قوية لاستخراج الدلالات واستكشاف الجمالية في النصوص الأدبية، وكما فعل الناقد العربي مع النقد السياقي والنسقي حوّل وجهته نحو هذه الآلية وفي هذه الدراسة سنحاول تتبع التحوّل الذي طرأ على الخطاب النقدي لدى أحد نقاد العربية المعاصرين ونعني به الناقد السعودي "عبد الله الغذامي" من خلال انتقال دراساته ومقارباته النقدية من النسق اللغوي إلى النسق الثقافي مستعينا في هذا الأخير بآلية التأويل، فكيف تحول هذا الناقد؟وماهي المحطات النقدية التي عبرها من خلال هذا التحول؟

### 1- النسق اللغوي في الخطاب النقدي لدى الغذامي:

يعدّ الغذامي من النقاد العرب الذين أسهموا أيّما إسهام في تحريك عجلة النقد العربي خاصة المعاصر منه، لما قدّمه من أعمال كثيرة ومتنوعة في هذا المجال، والمتتبع لحركيته النقدية –إن صحّ التعبير- في الساحة النقدية العربية يجد أنه تحول بذائقته وبنشاطه وبمقارباته النقدية عبر جميع محطات النقد الحديث والمعاصر ونعني بذلك ممارسته لجميع مناهج النقد أكانت سياقية أم نسقية أم ما بعد حداثية.

فعبد الله الغذامي في بدايات تجربته النقدية تأثر بمن سبقوه من علماء اللغة والنقاد العرب والفلاسفة الغربيين والمناطقة فكما سبقت الإشارة فقد مرّ الرجل بعدة محطات منهجية وذلك انطلاقاً من المناهج السياقية(التاريخي، النفسي الاجتماعي) ويظهر ذلك مبثوثاً في ثنايا بعض مؤلفاته الأولى، ثم مالبث أن تحول إلى النقد الألسني بكل ما جاء به من مناهج نصانية خاصة البنيوية والتفكيكية، وقد حاول هذا الناقد أن يقرّب للباحث العربي التصورات الغربية لتلك المناهج؛ وذلك من خلال تطبيقها على النصوص العربية خاصة الشعرية منها، فقد عمل جاهداً على فهم تلك المناهج والتمكن من جهازها المصطلحي، وكذا فهم خلفيتها الفكرية والفلسفية، محاولاً ترويضها لتتناسب و الخلفية الفكرية العربية، وربما يبدو ذلك جلياً للباحثين خاصة في كتابه" الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية" ومن خلال هذا

المصنف حاول تحديد مفهوم الشاعرية، ورأى أن النص هو محور الأدب، متكئاً على ما جاء به منظرو البنيوية خاصة أمثال رومان ياكبسونR.Yakson والذي تحدث عن أدبية الأدب والتي لخصها في نظرية الاتصال وعناصرها الستة التي تعطي كافة وظائف اللغة الإخبارية والنفعية والانفعالية[1].

وكذا نجده متأثراً بأحد أساطين النقد البنيوي ونعني به الناقد الفرنسي رولان بارت«R.Barth» خاصة في وجهة نظره التي يقول فيها بأن " ثغثغة النص ليست سوى زبدة اللغة"[2]، بمعنى أن التراكيب اللغوية ونظامها ونسقها هو الذي يوّلد لنا خطاباً (شعراً أو نثراً) مؤثراً، وليس المضمون من يفعل ذلك. الغذامي وهو يقرأ للشاعر بول فاليري P.Valery ويقارن بينه وبين حمزة شحاته السعودي بقراءة بنيوية يكتشف أنّ شحاته شاعر حداثيّ بامتياز؛ كونه يستعين باللغة الشاعرية وقد ركز في استقراء قصائد هذا الشاعر على لغة النص وبطريقة محايثة، وفي هذا السياق يصرح: «فالنص إذاً موجود والذي نحتاجه هو فقط أن ننظر إليه على أنه نص»[3]،والمتتبع لتحليله لقصائد هذا الشاعر يجده يقتفي أثر النقاد النسقيين بطريقة تضع لغة النص وأنساقها المختلفة في مقدمة اهتمامه.

وفي السياق نفسه يؤكد الناقد على أهمية لغة النص أثناء التحليل النصي؛ إذ يعتقد أنّ من اللغة ما تحول إلى إشارة فصار إشارية سيميولوجية، فالبنيوية والسيميولوجية وجهان لعملية واحدة وقيمة النص لا تكمن إلاّ بتفكيكه حيث يقول ديريدا«لاوجود لشيء خارج النص،ولأن لا شيء خارج النص فإن التشريحية تعمل - كما يقول ليتشLitché- من داخل النص لتبحث عن الأثر...»[4]، من خلال وجهة النظر هذه يتضح لنا تأثر الغذامي بالفكر البنيوي عموماً خاصة عندما نجده يؤكد على أهمية البناء اللغوي في النص، إذ إنّ اللغة أو نظامها ونسقها هو الأدب وليس المضمون، كما تذهب إليه المناهج السياقية، فقد كان هذا الباحث في بداياته النقدية ذا توجه نسقي خالص، فقد ركز في معظم مؤلفاته وفي العديد من آرائه النقدية على لغة النص وكشف العلائق والنظام الذي تتركب منه اللغة، مما ينعكس على شعرية النص أو على أدبيته.

وتأسيسا على ما سبق يعتقد الغذامي أن «النص هو محور الأدب، الذي هو تعالية لغوية انحرفت عن مواصفات العادة والتقليد وتلبست بروح متمردة رفعتها عن سياقها الاصطلاحي إلى سياق جديد يخصها ويميزها، وخير وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي وسبل تحرره، هي الانطلاق من مصدره اللغوي، حيث كان مقولة لغوية أسقطت في إطار نظام الاتصال اللفظي البشري، كما يشخصها رومان ياكسبون في نظرية الاتصال»[5]، من وجهة النظر هذه نستشف وبجلاء تأثر هذا الناقد بما جاءت به البنيوية حيث ركزت على لغة النص أو نسقه مهلة في المقابل سياقاته الخارجية بكل أنواعها. وهذا ما أكد عليه، وظهر لنا من خلال تحاليله لمجموعة من النصوص الشعرية في هذا الكتاب.

وأثناء حديثه عن التحليل الأسلوبي يذهب ناقدنا إلى اعتبار الأسلوبية منهج يرتكز «على اللغة لذاتها لا لما تحمله من دلالات، لأن هذه من الممكن إبلاغها بطرق كثيرة غير طرق اللغة الأدبية (والشاعر ليس شاعرا لما فكر فيه أو أحسه، ولكن شاعر لما يقوله من شعر. ليس خلّاق أفكار بل كلمات، فعبقريته تكمن كلها في إبداعه اللغوي أما أحاسيسه المفرطة فلا تكفي لتكوين أي شاعر)، وهذا هو المبدأ البنيوي»[6]، نلاحظ هنا أن ناقدنا ينتقل من البنيوية إلى الأسلوبية وهما كما هو معروف منهجان نسقيان استعان بهما في الكثير من قراءاته النصية متخذا من النسق اللغوي ميدانا خصبا لاشتغاله النقدي على النصوص الأدبية.

ولا نغادر تمظهرات النقد النسقي عند هذا الناقد دون أن نعرج على الحديث عن أهم ما جاءت به هذه الدراسات ونعني الشعرية، والتي يصطلح عليها (الشاعرية) وهي أهم فرع من فروع البنيوية ويرى أنها «تنبع من اللغة لتصف هذه اللغة، فهي لغة عن اللغة، تحتوي اللغة وما وراء اللغة، فما تحدثه الإشارات من موجبات لا تظهر في الكلمات ولكنها تختبئ في مساربها، وهذا تميز للشاعرية عن اللغة العادية»[7]، وهذا كما يبدو من صميم الدراسة النسقية، فالفارق بين الكلام العادي والكلام الشعري ليس إلا اللغة وما تحمله من حمولات دلالية وعاطفية وما توحي به من شحنات نفسية تؤثر في المتلقي.

والنص الأدبي لدى الغذامي يعتمد اعتمادا كليا على الشاعرية، رغم أن هذا النص قد يتضمن بالضرورة عناصر أخرى، إلا أن الشاعرية هي أبرز سماته وأخطرها في نظره، وقد نجد الشاعرية في نصوص غير أدبية، فهي ليست في اعتقاده حكرا على النص الأدبي، إلا أنها تستأثر به ويستأثر بها لأنها سبب تلقيه كنصّ أدبي، ودونها لا يحظى النص بسمته الأدبية، والنص لدى الغذامي يأخذ بتوظيف الشاعرية في داخله ليفجر طاقات الإشارات اللغوية فيه، فتتعمق ثنائيات الإشارات وتتحرك من داخله لتقيم لنفسها مجالا تعزز فيها مخزونها الذي يمكنها من إحداث أثر انعكاسي يؤسس للنص بنية داخلية تملك مقومات التفاعل الدائم، لذلك وجد ناقدنا يعتقد أن الشعر خاصة يعمد إلى تكثيف اللغة من خلال التركيز على توازنها الصوتي والإيقاعي، وعلى استخدام الصور التي تتكون في داخل سياق النص، مما يصرف نظر الملتقي بعيدا عن الدلالات المرجعية للكلمات، ويحوله إلى ما في لغة النص من خصائص فنية شكلية[8]، وهذا كله يصب في دائرة المقاربة النسقية ومالدور اللغة والقضايا الفنية الشكلية في صناعة النص الشعري كالإيقاع والصور والجانب التركيبي وكلها قضايا نسقية بحتة.

حاول الغذامي ربط الحداثة النقدية بالتراث العربي من خلال الربط بين مجهودات عبد القاهر الجرجاني رولان وبارت وجاك دريدا، وفي هذا الإطار تبدو قراءات الغذامي وقد سيطر عليها «نوع من التناقض لبوجداني الصارخ، لأنه معجب أيما إعجاب بتنظيرات بارت ودريدا، وعلى هذا الأساس كان يدعم هؤلاء نظرية الجرجاني ويؤكدونها، فقد كان الغذامي يستحضر طروحات دريدا لا ليدحضها وإنما ليثبت بها الاختلاف والمختلف، ويدعم بها ما جاء في التراث النقدي العربي القديم، ومن هذه الزاوية ترجم الناقد مفهوم التفكيكية Décontraction عند دريدا بالتشريح، والفرق كبير بين المفهومين، فالتشريع عادة ما يقف عند سطح المادة المراد تشريحها، في حين أنه التفكيك يتضمن الهدم والتفويض والتأزم لكل وحدة أو مركزية أو هوية[9]، وهنا يتضح لنا أن الغذامي من خلال محاولاته التأسيس لخطاب نقدي عربي معاصر ينطلق من الدراسة النسقية المحاثية للنصوص الأدبية وذلك بتشريح مركباتها اللسانية بمختلف مستواتها صوتية كانت أو تركيبية أو إنزياحية متأثرا بما جاء به أحد أعلام النقد النسقي الفرنسي ونعني به رولان بارت هذا الناقد الذي يعد من المنظرين الأوائل للنقد النسقي في العالم بما جاءت به قريحته من مصنفات في هذا المجال، ومن جهة ثانية وجدناه متأثرا بما جاء به الناقد الفرنسي الآخر ونعني جاك دريدا في المجال نفسه.

من خلال قراءات الغذامي للنص الشعري العربي المعاصر استعان أيضا بآراء «الشكلانيين الروس حول مفهومي اللغة الانكسارية التي تنشأ عنها فتات لغوي يشكل الجدار الفاصل واللغة المعيارية، ومن المفاهيم النقدية الحديثة التي تتعامل مع اللغة بفرضها حركة داخل النص تحطم قوانين المعيارية لتأسيس لنظام نسقي لغوي جديد يدعم فكرة التفكيك ويبعد الطروحات التقليدية، وتكسر الثنائية المتحكمة في بناء النص الشعري»[10]؛ وهذا يحيلنا أو يوضح

لنا بجلاء مدى اعتماد هذا النقد على الإرث الشكلاني الروسي باعتبار أن رواده يعدون الأوائل الذين دعوا إلى التركيز على لغة الأدب باعتبار الأدب علما، منطلقين من مقولة أدبية الأدب. وقد حصروا ذلك في الاعتماد على دراسة الشكل بما يحمله النص من قيم جمالية تقولبت في انساق لغوية مختلفة وهي الفارق في قيمة النصوص الأدبية لأن المضامين كما أسلفنا الذكر واحدة لا تتغير بل ما يضفي عليها القيمة والتجديد هو تلك القوالب التي أفرغت فيها وهي قوالب شكلية كالوزن والصور الشعرية و الإنزياحات الدلالية ونوعية التراكيب الجملية، وهذا بالفعل ما يعطي النصوص الشعرية زخما جماليا.

يذهب جان بياجي إلى الاعتقاد بأن التحليل النسقي يقوم على ثلاثة مظاهر رئيسية هي التكاملية والتنظيم الذاتي والتحويلية، وقد وجدنا أن عبد الله الغذامي يقتفي أثره خاصة من حيث قضية تكاملية اللغة وذاتيتها واستقلاليتها، فالبنيوية صورة أخرى للشكلانية على الرغم من تأثرها بها، ذلك أن البنيوية لا ترفض المقولة الشكلانية والتي يذهب أصحابها إلى الاعتقاد بأنه يمكن وصف العمل الأدبي دون اللجوء إلى محتواه[11]، وقد اتبع الغذامي آثار الشكلانيين الروسي في قضية أدبية الأدب، وبعدها تطرق إلى مسألة التحكم الذاتي في اللغة التي جاء بها بياجيه «حيث اعتمد عبد الله الغذامي على خمسة مفاهيم نسقية هي ( الصوتية/ العلاقة/ والإشارة الحرة/ والأثر/ و تداخل النصوص»[12]، وهي كما يبدو وبجلاء مفاهيم نسقية بحتة أخذها من النقد الغربي وقام بتبنيها من خلال مقارباته النسقية للنصوص الأدبية في بداية تجربته النقدية الحداثية.

وفي المجال نفسه نجد ناقدنا يبسّط المصطلحات النسقية لمتلقيه حين قام بالتدليل على ما يذهب إليه بآية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الصافات الآية 65، فيرى أننا لسنا بحاجة إلى الوجود العيني للشياطين كي ننفعل بهذه الآية، فالجملة هنا تقوم بتأسيس انفعالها في نفس المتلقي عن طريق طاقتها (التحليلية) الذي هو (التحكم الذاتي) في لغة بياجيه بأن تعتمد البنية على نفسها لا على شيء خارج عنها[13].

بعد هذا الغرض لأهم مظاهر النسق اللغوي أو بمعنى آخر تمظرات النقد النسقي لدى عبد الله الغذامي نخلص إلى أن الباحث في بداياته النقدية وكغيره من النقاد العرب تأثر تأثرا مباشرا بما جاءت به المدارس الغربية الحداثية بدءاً من لسانيات دي سويسر مروراً بما جاءت به البنيوية من نظريات تهتم بتحليل النص انطلاقا من لغته مروراً كذلك بالإرث الشكلاني وما قدمه منظوره من جهود في مجال الدراسات النسقية وصولا إلى التفكيك مع جاك دريدا.

إلا أن ناقدنا وكغيره من النقاد ومسايرة لروح العصر المتميزة بالحركية والتطور والتحول السريع نحا منحا آخر حيث ركب موجة مناهج ما بعد الحداثة وفيما يلي سنحاول التعرض المظاهر هذا التحول لدى الناقد خاصة في تبنيه لقضية التأويلية (الهيرمينيوطبقا) في أعماله النقدية خاصة فيما تعلق بالنقد الثقافي.

**02- التّحول إلى النقد التأويلي والثقافي لدى الغذامي:**

بعد أن عرضنا في الجزئية السابقة من هذا البحث لتبني الغذامي للمناهج النسقية وكيف وجدناه يأخذ آلياته الإجرائية لمقاربة النصوص من تلك المناهج البنيوية /الأسلوبية/ السيمائية والتفكيكية، ورصدنا كيف تعامل مع الأنساق اللغوية واتكائه على النظريات الغربية في هذا المجال، سنحاول في هذا العنصر أن ننتقل إلى التحول المنهجي لدى هذا الناقد من المناهج النصانية إلى مناهج ما بعد الحداثة خاصة النقد الثقافي بما حواه من قضايا وآليات على رأسها الإنساق الثقافية والمضمرات النصية وقضايا التأويل.

فقد وجدنا أن ناقدنا متأثر بالمنجزات الغربية في مجال النقد. وقد تحول مطلع الألفية إلى مناهج ما بعد الحداثة خاصة النقد الثقافي، والذي ألف فيه عديد المؤلفات متناولا فيها معظم الأجناس الأدبية شعرا ونثرا، هذا التحول كان من أسبابه أيضا التحولات الحضارية المعاصرة وظاهرة الثقافة التي تسيطر على ساحة التفكير في العالم. وكذا التفاعل الوافد بين المجتمعات والشعوب نتيجة احتكاك الثقافات وتبادل المعارف، نتج عنه حمولة من الانشغالات والقضايا الكبرى المتعلقة بالإنسانية، فالبحث عن الإرث الثقافي كفيل لاستحداث جيل من الباحثين حاولوا استحداث عملية تواصل بين الذّات والجماعة، وذلك لجلب رؤى فلسفية تساهم هي الأخرى في إرساء مجموعة من القيم والأنماط، والدعائم الثقافية، ونحن لا ننكر فضل "عبد الله الغذامي" في إشباعه للساحة النقدية العربية بمجموعة من الأنساق الكبرى والقضايا المتعلقة بعلوم الأناسة، فالناقد تبنى أفكار مستوحاة من الفلسفة الغربية. متكأة هي الأخرى على ثقافات قديمة لشعوب تثاقفت في زمنها عبر عدة أنساق، وهذا كله نجده في كتابه "النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية".

عبد الله الغذامي رحالة في النقد على شاكلة (رولان بارتR.barth)، فبقدر ما نهل من إنجازات الناقد الفرنسي (رولان بارت) النقدية فقد شابهه في تنقلاته بين مختلف المدارس النقدية والتيارات الفكرية، بداية بالتراث، ثم النقد الألسني مروراً بالتفكيكية الفرنسية والأمريكية وصولا إلى النقد الثقافي وإفرازات النظرية النقدية زمن العولمة، ويشكل جهازه الإجرائي النقدي فسيفساء وخليطا من الأدوات المنهجية التراثية والحداثية وما بعد الحداثية[14]، وما يهمنا في هذه الجزئية من البحث هو تحول الناقد بشكل كلي إلى المناهج ما بعد الحداثة بكل أطيافها بدءاً بالتأويلية فالنقد النسوي فالنقد الثقافي ونظرية التلقي.

وفي هذا الصدد نجد يصرح قائلاً «دلفنا إلى النص الجديد وبسببه إلى عصر ثقافي جديد هو عصر القارئ، ويكون الإبداع نفسه عملية قراءة للزمن وللكون... فالمبدع يشرح ذاكرته الحضارية مستنداً إلى حسه الجمعي بذاته وبعالمه الدائر فيه عطاءاً وأخذاً، والقارئ يشرح النص بناءً على تلاحمه معه، بعد أن أصبح انبثاقا لغويا لعالمه الذي يشترك فيه مع المبدع ومع الموروث الرافد للإبداع، ومع الحس الجمعي الذي صاغه فكره ووجدانه وتفاعله بهما مع النص»[15]، بمعنى أن النص نصان، نص المبدع بما يحمله من معالم حضارية و اجتماعية ونفسية، ونص القارئ بما يحمله القارئ من المعالم نفسها.

والمتتبع لحركية الغذامي النقدية نجده قد يمّم وجهه شطر الدراسات ما بعد حداثية خاصة الثقافية وتحديدا في كتابه (المرأة واللغة) الصادر سنة 1996م، وبعد ذلك نلفيه قد أعطى أولوية كبيرة لمظاهر الثقافية ولقضية التلقي في النقد الأدبي وخاصة في كتابه (تأنيث القصيدة)، لاعتقاده أن التلقي والمظاهر الثقافية تعد من أهم الركائز التي يقوم عليها مشروعه الثقافي، وقد أشار في مقدمة هذا الكتاب لذلك بقوله: «هو جزء من مشروع همه الحفر عن الأنساق الثقافية، متوسلاً بمنطلقات (النقد الثقافي) وطامحا إلى تطوير فعالية النقد من كونه أدبيا جماليا إلى كونه نسقيا ثقافيا، هو يطمح لنقله نوعية في النقد (من نقد النصوص إلى نقد الأنساق)، وقراءة النص الأدبي لا بوصفه حدثا أدبياً فحسب، وإنما بوصفه حدثا ثقافيا كذلك»[16].

والغذامي كما أسفنا الذكر يعد من أوائل النقاد العرب الذين ثاروا على النقد النسقي الذي تبناه ردحا من الزمن، والذي رأى بأنه عقيم أثناء تعامله مع الخطاب الأدبي، كما وسمه بأنه قد خفق كثيراً في تعامله مع معاني النصوص ودلالاتها، وكان من الأوائل الذين تبنوا النقد ما بعد الحداثي داعيا إلى تحرير النقد من السلطة المؤسساتية، كما دعا إلى

استبدال النقد الألسني بكل مناهجه بالنقد الثقافي؛ لما فيه من مرونة يستطيع الناقد من خلالها الكشف عمّا تحمله النصوص الأدبية من أنساق ثقافية مضمرة خلف الجمالية الأدبية. لقد «ظهر عبد الله الغذامي كناقد في مجال الأدب في مرحلة التخصصات الكبرى التي عرفها النقد العربي الحديث، مرحلة الثمانينيات من القرن العشرين، وأصفها بذلك لأنها شهدت بداية انهيار نسق من التفكير النقدي، وبداية ظهور نسق مختلف حددت ملامحه العامة التيارات الغربية النقدية»[17]، التي تحولت من النقد الحداثي الذي أعلا من شأن النص إلى نقد ما بعد الحداثة الذي اهتم بالمتلقي وبالأنساق الثقافية وبسياق النص التاريخي وما يحمله النص الذي اهتم بالمتلقي وبالأنساق الثقافية و بسياق النص التاريخي وما يحمله النص من قيم هامشية وما يحمله من مضمرات ومسكوت عنه.

لقد بدأ الاهتمام بالمتلقي بعد مرحلة البنيوية و الأسلوبية والسيمائية التي ركزت اهتمامها كلها على النص بدل القارئ، وكان ذلك مع (رولان بارت) و(تزفيتان تودوروف) و(جوليا كريستيفا) و (أمريتو إيكو) وغيرهم، لتأتي مناهج ما بعد الحداثة كالتأويلية والنقد الثقافي والنقد النسوي ونظرية القراءة والتلقي لتعيد الاعتبار للمتلقي بعد أن تسيّد المؤلف والنص العملية النقدية ردحا من الزمن، وقد ركب الغذامي هذه الموجة الجديدة خاصة في كتابه (الخطيئة والتكفير) حيث يعتقد أن «القراءة تتضمن تقرير مصير النص الأدبي، ومثلما أنها مهمة كفعالية ثقافية، فإن نوعيتها مهمة أيضا»[18].

ويرى في السياق نفسه أن القصيدة الحديثة جاءت «لتحاول تنمية الوجدان لكي يصبح وجدانا جمعيا، مثلما تحاول تهذيب العقل ليكون انفعاليا، ومن هنا يدخل القارئ بكل قواه العقلية والوجدانية ليكون فاعلا مشاركا في صناعة النص، فهو هنا ينتج نصا ولا يستهلك قولا، أو ينفعل بتعبير، لأن القصيدة الحديثة لا تكتفي بأن تقول فقط أو أن تعبر فقط أو أن تصور فقط، وإنما هي تسعى إلى توظيف ذلك كله، لتجعل منه احتمالا نصوصيا لعالم جديد ليس انعكاسا لأي عالم قائم، سواء في الخارج أو في الداخل، ومادام الأمر يرتكز على التوظيف فإنه من الحتمي أن يكون تحقيق ذلك قضية قرائية, لأن النص يحمل إمكانيات نصوصية قادرة على الانفتاح، وتسعى إلى بناء وجدان جمعي وإلى دلالات شمولية كلية»[19].

لقد انطلق الغذامي في تحوله من النسق اللغوي إلى النسق الثقافي من التفكيكية، وفي اعتقاده أن هذا المنهج كما أصل له (جاك دريدا) و (ميشال فوكو) يقوم «على مبدأ الهدم والخلخلة لكل المفاهيم والمرتكزات المتوارثة عبر تاريخ الفكر الغربي الطويل، وفق هذه الرؤيا راح الغذامي يعيد قراءة الشعر العربي قديمه وحديثه، وفق آلية الهدم والشك والبحث في الأنساق المضمرة»[20]، إثر ذلك انتقل إلى التاريخانية الجديدة ورأى أنها نظرية في القراءة والتأويل «من حيث إنها تسعى إلى أرخنة النصوص Historicity of texts وتنصيص التاريخ Textuality of history، والنصوص هنا علامة ومؤشر أسهمت التاريخانية الجديدة في كشفه حينما أخذت شبكة العلاقات (النصوصية/ التاريخية) في اعتبارها النظري بما إنها خطاب مزدوج، والمؤسسة الاجتماعية هنا لا تروض رعاياها عبر فرض القيود عليهم فحسب، بل إنها تقرر لهم سلفا الوسائل التي بها يقومون تلك القيود»[21].

ويبدو أن النقد البنيوي قد شكل محطة في ظهور النقد المابعد حداثي لدى الغرب كما لدى ناقدنا، ويمكن اختصاره في تلك المفاهيم المتعلقة «بالمسائل المرتبطة بالجنوسة مثل عدد النساء مقارنة بالرجال في النصوص المعروضة في وسائل الإعلام الجماهيرية، ودور المرأة في النصوص الدراسية، والاستغلال الجنسي لجسد المرأة في النصوص والنظرة الذكورية في النصوص والقيم والمعتقدات الموجهة للمرأة، والكيفية التي قدمت بها المرأة في الأنواع الأدبية والوعي

النسائي في المشكلة»[22].هذا التوجه تبناه الغذامي في العديد من مؤلفاته منها (تأنيث القصيدة والقارئ المختلف) وكتاب (المرأة واللغة) وكذلك كتاب ( النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، وقد يجده الباحث يركز في كل هذه المصنفات على العنصر النسوي ( الأنثوي) من خلال فكرة الفحولة التي طغت على المجتمع والثقافة العربية في شتى مناحي الحياة، وقد ركز على آلية اللغة أو الكتابة الشعرية في هذا المجال.

متأثرا بما جاء به (ميخائيل باختين) من خلال المبدأ الحواري الذي استعان به في تحليل الرواية، حيث يرى أن الرواية تعود في أصولها إلى الاحتفالات الشعبية أو ما يعرف بالكرنفال في بعض الثقافات، هادفا بذلك إلى خلخلة مونولوجيات الخطاب الدغمائية السائدة، الإيديولوجي منها والتيلوجي، نجد هذه الرؤيا متجلية في النقد الثقافي عند الغذامي من خلال تجاوز الخطابات الرسمية إلى الخطابات الهامشية، والتركيز على قبيحات النص لا جمالياته، ومن جهة أخرى لا يمكن إغفال دور الباحث الأمريكي (فينيسنت ليتش) في تأثر الغذامي به في العديد من مؤلفاته بدءاً من (الخطيئة والتكفير) لتتضح بشكل جيد في كتابه (النقد الثقافي)، كما تأثر (برولان بارت) و(ميشال فوكو) و(جالك دريدا) و(جيل دولوز) و(نعوم تشومسكي) و(بيلر بورديو) وغيرهم[23].

حاول الغذامي أن يبرر تحوله النسقي الحداثي إلى مابعد الحداثة بقوله: «الموقف النقدي من الحداثة يتصاعد بما إن الحداثة خطاب مركزي مضاد للتعدد غير الأوروبي والآخر الملون، وحمل وعودا بالمساواة والحرية لم تتحقق»[24]، وفي هذا الصدد نجده يصرح أيضا«جاءت (ما بعد الحداثة) لتأخذ بالاعتبار بما في ذلك مجموعة الانطباعات البشرية الأساسية كالعواطف و الانفعالات والحدس والانعكاسات النفسية والتأمل والتجربة الذاتية والعادات الخاصة وما إلى ذلك كالعنف الذاتية الولع الروحي وكل ما هو ميتافيزيقي أو سحري، مع تقدير الوجدان الديني والتجربة الروحانية، كل ذلك يأخذ اهتماما يتجدد في مرحلة ما بعد الحداثة»[25]. إن هذا النقد الذي تحول إليه الغذامي يرى بأنه «فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة، وحقول الألسنية، معنى بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه، وصنيعه ما هو رسمي وغير مؤسساتي، وما هو كذلك سواء بسواء من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لذا معنى بكشف لا الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه المخبوء من تحت أقنعة البلاغي والجمال»[26].

وفي معرض تركيزه على القبحيات في النص الأدبي والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بكل ما هو ثقافي هامشي أو مضمر يقول الغذامي «وكما أن لدينا نظريات في الجماليات، فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات، لا بمعنى البحث عن جماليات القبح بما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما المقصود بنظرية القبحيات كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي»[27]، وهذا ما يعتبره الغذامي حركة نقدية شمولية النظرة للخطاب الأدبي، وهي في الوقت نفسه كشفا لمضمرات النص ومخبوءاته.

ويذهب الغذامي إلى الاعتقاد بأن هذا النوع من النقد ليست غايته نقد الثقافة في صورها المجردة أو المطلقة، إنما غايته نقد المستهلك الثقافي، بمعنى الاستقبال الجماهيري والقبول القرائي لأي خطاب أدبي، وقد شبهه بعلم العلل لدى أهل الحديث إذ يرى أن النقد الثقافي هو «نوع من (علم العلل) كما عند أهل مصطلح الحديث، وهو عندهم العلم الذي يبحث في عيوب الخطاب ويكشف عن سقطات في المتن أو في السند، كما يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة وصارمة، ولا شك أن البحث عن علل الخطاب يتطلب منهجا قادرا على تشريح النصوص واستخراج الأنساق المضمرة

ورصد حركتها"[28]، ويضرب لذلك مثالا لملفوظ الشحم فيقول:" كما هي الدلالة اللغوية المزدوجة لكلمة (جميل) التي تعني (شحم) لذيذ وجذاب إلا أنه ضار وفتاك بالصحة البدنية، وكأنما لذته هي الواسطة والقناع لمضاره، وكذا هي الجماليات البلاغية تضمر أضرارها وقبحيتها، والحاجة إلى كشف ذلك تصبح هماً نقديا مشروعا وضروريا"[29].

ونجد هذا الناقد من خلال تحوله النقدي إن صح التعبير يتكئ في تأسسه لهذا النوع من النقد على التخلي عن البلاغة التقليدية، وهي في اعتقاده لم تعد في استطاعتها استنطاق الخطابات الأدبية لأنها بقيت سجينة كل ما هو جمالي، وتجاهلت عما تحت هذه الجمالية من أنساق مخبوءة، وهذا الاتجاه يصرح الباحث قائلا: «لقد أدى النقد الأدبي دوراً مهما في الوقوف على جماليات النصوص، وفي تدريسنا على تذوق الجمالي، وتقبل الجميل النصوصي، ولكن النقد الأدبي مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه، أوقع نفسه و أوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي، وظلت العيوب النسقية تتنامى متوسلة بالجمالي الشعري البلاغي، حتى صارت نموذجا سلوكيا يتحكم فينا ذهنيا وعلمياً، وحتى صارت نماذجنا الراقية بلاغيا هي مصادر الخلل النسقي»[30].

وقد وصف النقد الأدبي بكل آلياته التقليدية والمنهجية بأنه قد وصل سن اليأس ولم يعد قادراً على استنطاق النصوص الأدبية في ظل التطور الهائل في العلوم الذي يشهده عصرنا، وفي سياق آخر يذهب ناقدنا إلى الاعتقاد بسيطرة صفة الترتيبية والطبقية والهرمية والتصنيف على الوعي العربي و ذلك في شتى مناحي الحياة سواء الاجتماعية أو السياسية أو الفكرية أو الثقافية، فيقدم الرجل على المرأة، والصغار على الكبار، ويقدم الشعر على النثر ويقدم الأدب الرجالي على النسائي كما يقدم أدب الكبار على أدب الصغار ويقدم الأدب الرسمي على الأدب الشعبي الهامشي، لذلك جاء النقد الثقافي بكل آلياته الإجرائية ليكسر الهيمنة ويعيد الاعتبار للنصوص الهامشية، هذه الدراسات التي «كسرت مركزية النص، ولم تعد تنظر إليه بما أنه نص، ولا إلى الأثر الاجتماعي الذي قد يظن أنه من إنتاج النص، لقد صارت تأخذ النص بما فيه وما يكشف عنه من أنظمة ثقافية فالنص هنا وسيلة وأداة، وحسب مفهوم الدراسات الثقافية ليس النص سوى مادة خامة تستخدم لاكتشاف أنماط معينة من مثل الأنظمة السردية والإشكاليات الأيديولوجية، وأنساق التمثيل وكل ما يمكن تجريده من النص، لكن النص ليس لغاية القصوى للدراسات الثقافية وإنما غايتها المبدئية هي الأنظمة الذاتية في فعلها الاجتماعي في أي تموضع كان بما في ذلك تموضعها النصوصي»[31]، ويرى الغذامي أن «أفضل ما تفعله الدراسات الثقافية هو في وقوفها على عمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، وهذه بما أنها تمثل الإنتاج في حالة حدوثه الفعلي، فإنها تقرر مصير أسئلة الدلالة والإمتاع والتأثيرات الأيديولوجية، وهذا يستحضر نظرية (الهيمنة) التي طرحها (قرامشي) من قبل، والتي يؤكد فيها أن السيطرة لاتتم بسبب قوة المسيطر فحسب، ولكنها أيضا تتمكن منا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلم بوجودها"[32]، وهذا ما يسميه نقّاد هذا المنهج بتنميط الصور الاستهامية في ذهن الآخر حتى تتحول إلى عقيدة.

وفي ختام هذه الجزئية من البحث ارتأينا أن نلخص مقولات هذا النوع من النقد لدى الغذامي فأثناء تأصيله لمقولات هذا النقد حاول الانتقال بالعملية النقدية من طبيعتها الأدبية إلى طبيعتها الثقافية «فلم تعد الأداة النقدية معينة بقراءة النصوص قراءة أدبية -أي الوقوف على أدبية النص- وإنما أصبحت معنية بتأويل النص وكشف مضمراته وأنساقه الموظفة توظيفا ثقافيا لتمرير حيل المؤسسة الثقافية الرسمية ... لكي تنتقل الأداة النقدية من كونها الأدبي إلى كونها الثقافي وجب تغيير آلياتها المنهجية و أدواتها الإجرائية، ومن ثم فقد قام بنقلة اصطلاحية لكل المقولات النقدية التي كانت

معتمدة في النقد الأدبي، وأعطاها اصطلاحا جديدا يتماشى مع الكون النقدي الجديد (النقد الثقافي)"[33]، وقد لخص الغذامي مقولات النقد الثقافي في ست مقولات هي: الوظيفة النسقية/ المجاز الكلي/ الثورية الثقافية/ الدلالة النسقية/ الجملة الثقافية/ المؤلف المزدوج.[34]

**خاتمة:**

بعد هذه الرحلة في رحاب الإبداع النقدي لدى ناقد من أبرز نقاد العربية في العصر الحديث ونعني به الناقد السعودي عبد الله الغذامي وصل البحث إلى جملة من النتائج لعل أهمها أن الغذامي كان فسيفسائيا في تعامله مع مناهج النقد الأدبي فقد اشتغل على كل المناهج سياقية ونسقية وما بعد حداثية، كما لاحظنا أن هذا الناقد تأثر تأثراً كبيراً بأساطين النقد الغربي باختلاف أطيافهم، و نهل من كل المدارس النقدية الغربية واستطاع أن يكون لنفسه إسما كبيرا في الساحة النقدية العربية، كما خلصنا إلى أن الغذامي رغم أنه قد سبق إلى مناهج ما بعد الحداثة إلا أن بصمته كانت جد واضحة وكانت علامة فارقة في الخطاب النقدي العربي.

**قائمة الإحالات:**

1- ينظر: عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، سنة 1997، ص09.
2- ينظر .رولان بارت، لذة النص، تر. فؤاد صفا، ط1 بغداد، بيروت 2017، ص09.
3- ينظر: عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ص23.
4- ينظر: المرجع نفسه، ص58.
5- المرجع نفسه، ص8-9.
6- المرجع نفسه، ص20.
7- المرجع نفسه، ص22.
8- ينظر: المرجع نفسه، ص24-25.
9- بومصباح نبيل، التفكيكية الغذامية، رواد النقدية، مجلة الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة الشلف، الجزائر،ع09. 2012، ص45.
10- ينظر: مشري بن خليفة، القصيدة الحديثة في النقد العربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ط.1، ص144.
11- يوسف نور عوضي، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمان للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص26.
12- ينظر: سماعيل فاطيمة زهرة، الخطاب النقدي المعاصر وآلياته الاجرائية في مقاربة النص الشعري المعاصر ( عبد الله الغذامي أنموذجا)، أطروحة لنيل شهادة الدّكتوراه، كلية الآداب والفنون، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2027/2016، ص41.42.
13- ينظر: عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ص 32-33.
14- ينظر: قماري ديامنتة، النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، مخطوط ماجستير، جامعة ورقلة، الجزائر، 2012-2013، ص73.
15- عبد الله الغذامي، تشريح النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2006، ط2، ص59.
16- عبد الله الغذامي، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،2005، ص.ج، الكلام من المقدمة.
17- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، ط.1، ص117.
18- عبد الله الغذامي، تشريح النص، ص70.
19- المرجع نفسه، ص58.
20- فايزة لولو، تجربة النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي بين التنظير والتطبيق، مجلة أبو ليوس، جامعة سوق أهراس، الجزائر، مج 9، ع2، جويلية 2022، ص72.

21- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت ،2005، ط.3، ص.ص. 45-46.

22- عز الدين مناصرة، النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي للنشر، الأردن، 2005، ط .1، ص 238.

23- فايزة لولو، تجربة النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، ص 73-74.

24- ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص36.

25- المرجع نفسه، ص39.

26- المرجع نفسه، ص.ص.83-84.

27- المرجع نفسه،ص84.

28- المرجع نفسه، ص84.

29- المرجع نفسه، ص84.

30- المرجع نفسه، ص7-8.

31- المرجع نفسه، ص17.

32- المرجع نفسه، ص18.

33- فايزة لولو، تجربة النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، ص79.

34- للتفصيل في هذه المقولات ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الصفحات من 65 إلى 74.

## المصادر والمراجع:


1. بومصباح نبيل، التفكيكية الغذامية، رواد النقدية، مجلة الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة الشلف، الجزائر،ع09، 2012.
2. سماعيل فاطيمة زهرة، الخطاب النقدي المعاصر وآلياته الاجرائية في مقاربة النص الشعري المعاصر ( عبد الله الغذامي أنموذجا)، أطروحة لنيل شهادة الدّكتوراه، كلية الآداب والفنون، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2027/2016.
3. رولان بارت، لذة النص، تر. فؤاد صفا، ط1 بغداد، بيروت 2017.
4. عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، ط.1.
5. عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، سنة 1997.
6. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت ،2005، ط.3.
7. عبد الله الغذامي، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،2005.
8. عبد الله الغذامي، تشريح النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2006، ط2.
9. عز الدين مناصرة، النقد الثقافي المقارن، منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي للنشر، الأردن، 2005.
10. فايزة لولو، تجربة النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي بين التنظير والتطبيق، مجلة أبو ليوس، جامعة سوق أهراس، الجزائر، مج 9، ع2، جويلية 2022.
11. قماري ديامنتة، النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، مخطوط ماجستير، جامعة ورقلة، الجزائر، 2012-2013.
12. مشري بن خليفة، القصيدة الحديثة في النقد العربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ط.1.
13. يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمان للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.